نشأة الثقافة العربية الإسلامية
نظرة إلى العراق

للدكتور عبد العزيز الدوري

ان نشأةَ الثقافة العربية الاسلامية ظاهرةٌ معقّدة تتطلّب دراسة بيئاتها والعناصر المكوِّنة لها ، والاتجاهات والتطورات الخاصة . وفيما يلي محاولة أولية لرسم الخطوط العامة (١) .

ادّى التوسُّع العربي الاسلامي — الذي رافقه الشعور برسالة — الى فتح ابواب البلاد الخصيبة الى الشمال امام القبائل المندفعة باستمرار من الجزيرة العربية ، وشجّعت الخلافةُ الهجرةَ الى الأمصار واعتبرتها لازمة للانتماء الكلّي للأمة (٢) . واعتبرت العودة الى البادية ، بعد الهجرة ، امرا مكروها (٣) . وهذا ادى الى استقرارٍ متزايد للقبائل في البلاد المفتوحة .

واتجهت سياسة التمصير ابتداء الى وضع المقاتلة في مجموعات متماسكة في المراكز الجديدة ، في دُور هجرة مثل البصرة والكوفة ، وفي قرى او مناطق قرب المدن القديمة (كما في الأجناد في الشام) ، او في اماكن استراتيجية (كما في انحاء من الجزيرة الفراتية) .

واستمرت القبيلة او العشيرة اساسا في تنظيم السكن والعلاقات الاجتماعية في الامصار . وكانت القبيلة — عند خروجها من الجزيرة — تتوزع عادة بين أكثر من مركز او منطقة ، ثم نُظِّمت المجموعات القبلية ، لاغراض التعبئة العسكرية، في وحدات كبيرة ، على الأسباع (ثم الأرباع) في الكوفة مثلا، وعلى الأخماس في البصرة .

وساعدت الاقامة في بلد واحد ، وظهور مصالح جديدة ، والمصاهرات بين القبائل ، اضافة الى تأثير المفاهيم الاسلامية، على ظهور ولاءات محلية ، واوجدت ظروفا ثقافية جديدة ، وساعدت

على قيام تكتّلات جديدة (٤) . وهـذا يوضح كيف ان القبائـل الواحدة أو القريبة ، والتي تعيش في امصار او اقطار مختلفة ، لم تتّخذ موقفا واحدا في القضايا العامـة . وكل ذلك ساعد على ظهـور اتجاه نحو الوحدة بين القبائل فـي المصر الواحد .

وكان كـلٌّ من الكوفة والبصرة بابا للبادية الـى السواد ؛ وهذا يوضح لِحَدٍّ مـا اطّراد الهجرة اليهما . وأكّد هـذه الهجرةَ استمرارُ الصلات بـين عشائر المصرين وبين اقربائهـا من القبائل الرحالة في البوادي المجاورة . هذا الى ان جماعات من المقاتلة (خاصة من ربيعة وتميم) استمرّت على العيش في الباديـة مع استعدادها لتلبية النـداء للمشاركة في الحملات حين استقـر الآخرون في الكوفـة والبصرة (٥) .

ولـم تُشَجَّع الاقامة بين السكان المحليين في البـدء ، ونُظِر اليها بشيء من الإنكار (٦) . وهكذا فان عزلة المقاتلـة ، وهي ضرورة عسكرية واجتماعية في البـدء ، كان لها اثرها في توفير جـوٍّ للوحدة والاستمرار الثقافي ، وساعدت علـى جذب الآخرين الى اطار المجموعـات العربية ــ الى الاسـلام والعروبة .

ــ وكانت اللغة العربيـة اساس الهُوِيَّة العربية ، فالنـاس عرب او عجم بلغتهـم . اما المفاهيم المتّصلة بالنسب والتـي تنطوي على مفهوم الجذور البشريـة عند القبائل ، فانها لـم تَطمس هذا الاساس . فحين قال الحجّاج لأهـل الكوفة : « لا يؤمنكم الا عربـي » ، وثب بعضهم بالقارىء يحيى بـن وثاب ، وهو مولى ، لعزلـه عن الامامة ، فاعترض الحجاج قائلا : « وَيْحَكم إنمـا قلتُ عربي اللسان » (٧) . وهكـذا صارت اللغة ، لا الـدم ، اساس العروبة (٨) .

ولمـا كانت العربية لغـة القرآن ، فقد ارتبطت بالاسلام ، مما اكسبها حرمـة وساعد على انتشارها . فكـان دخول الاسلام يعني تَعلُّـمَ العربية ، وربّما المشاركـة في الثقافة العربية . وتكاد « العربية »

ان تكون مرادفة للاسلام في الفترات الاولى (٩) . فلما سأل ابو جعفر (المنصور) مولى لهشام بن عبد الملك عن هويّته ، قال : « ان كانت العربية لساننا فقد نطقنا بها ، وان كانت دينا فقد دخلنا فيه » (١٠) .

ـ كانت القبائل العربية تندفع باستمرار الى الاراضي الخصبة . وقد انتشرت في الجزيرة الفراتية بين دجلة والفرات قبل الميلاد ، وكان بعضها متبديا والآخر مستقرا (١١) . فكان مركز قضاعة في الحضر (١٢) ، وكانت ربيعة وتنوخ في الجزيرة (١٣) ، والتمر بن قاسط في عين التمر (١٤) . وانتشرت تغلب من عين التمر وعانات على الفرات شمالا حتى جبل بشري،وكانت من رعاة وفلاحين (١٥) . وكان في حاضر الرقة (ريفها) قوم من العرب (١٦) . وكانت اياد في الفرات الأوسط واطراف الجزيرة الفراتية ، ثم تحرّكت في فترة الفتوح الى الجزيرة (١٧) .

وكانت في الحيرة قبائل عربية ـ تنوخ والعباد وجماعات أخرى (الأحلاف) ، وامتدَّ بعضها الى الانبار (١٨) . ويقول الهمداني : « الانبار والحيرة والقصر الأبيض ... وسنداد والخورنق والسدير وبارق ، محاضر العرب القديمة من حيز العراق » (١٩) . وانتشرت بكر بن وائل في البوادي المُطِلّة على السواد بين القادسية والخليج العربي (٢٠) .

هكذا وبنهاية القرن السابع للميلاد كانت مناطق الفرات الأسفل والاوسط والجزيرة الفراتية قد تَعَرَّبت لِحَدٍّ كبير .

وفي فترة الفتوح وبعدها جاءت قبائل وجماعات جديدة الى العراق ؛ فقد ارتفع ديوان البصرة مثلا من ١٠٫٠٠٠ الى ٢٠٫٠٠٠ أيام عثمان ، ثم الى ٤٠٫٠٠٠ و (٨٠٫٠٠٠ من العيالات) أيام علي ، ثم الى ٨٠٫٠٠٠ (و ١٢٠٫٠٠٠ من العيالات) في ولاية زياد بن ابيه (٢١) ، ثم الى ٩٠٫٠٠٠ (١٤٠٫٠٠٠ من العيالات) في ولاية عبيد الله بن زياد (٢٢) . وفي الكوفة ارتفع الديوان من ٢٠٫٠٠٠ سنة ١٧ هـ. الى ٤٠٫٠٠٠ سنة ٢٥ هـ. (٢٣) ، الى ٦٠٫٠٠٠ في اواسط القرن الاول الهجري (٢٤) .

ونزلت مجموعات قبليـة ، من تميم وبكر واليمن ــ خاصة خولان وهمدان والأزد ــ الموصل في خلافة عمـر . وتَحَوَّلت الحديثة ، على الزاب الأعلى ، الـى قرية عربيّة بمن نزلها من المـرب (٢٥) . ونزلت قبائل عربيـة في سنجار وراس العين (٢٦) ، وجاءت جماعـات كبيرة من قيس الى الجزيرة . ثـم ان معاوية اتى بمجموعات مـن قيس واسد واوطنهم اماكـن ستراتيجية بين الرقة وسنجار ، كمـا ثَبَّت ربيعة في ديارها مـن الجزيرة (٢٧) . واستمرَّت الهجـرة الى الجزيرة الفراتية، وادَّت الى تكوين ديـار مضر وديار ربيعة (٢٨) . لـذا راى مروان بن محمـد ، آخر الامويين ، انـه يستطيع الاستناد الى قيس في تكويـن قُوّاته،وانتـدب منها عشرين الفـا (٢٩) .

ــ وكان للعوامـل الجغرافية والبشريـة اثرها في العراق ، فقد كان ملتقى الثقافات السـاميّة والآريّة،اضافة الى كونـه مهد الحضارة الساميّـة .

كـان سكان العراق (النبـط) ، وهم ساميّون يتكلمون الآرامية . اما الفرس فكانوا فئة حاكمة في المدن الرئيسية (مثل طيسفون ونصيبين) ، وبينهم الملاّكون الكبـار والجنود في الحاميات ، وجُلّهم طردوا اثنـاء الفتح او أُسِروا (٣٠) . ولكـنَّ بعضهم بقي في المـدن،مثل الحيرة ونصيبين وسنجار،او علـى الحدود الشرقيَّة للسهول ، بينما جـاء آخرون الى المراكز الجديدة (خاصّة الكوفـة والبصرة) . وبقي كثير مـن الدهاقين ، وبعضهم من اهـل البلاد (نبطا او عربـا)،واسلموا وحافظوا علـى اراضيهـم (٣١) .

وكانت لفظة « نبـط » ابتداءً ذاتَ دلالة بشرية (٣٢) ، ثـم صارت بعدئذ مرتبطة بالفلاحة والـريّ (٣٣) . وكان يشار للنبط عادة بـ « اهل السواد » او « العلـوج » تمييزا لهم عن العجـم (٣٤) . وتتباين الروايات عن وضعهم ، بين مـا يشير الى الشعور بالرابطـة والكيان (٣٥) وبين الادعاء بالأصـل الفارسي (٣٦) .

اعتُبِر المسلمون النبط غير محاربين، ولم يتعرَّضوا لهم في اثناء الفتح (٣٧) . يذكر المدائني أن عمر بن الخطاب « رفع الرقّ عنهم ، ووضع عليهم الخراج في رقابهم، وجعلهم اكرة الأرض » (٣٨) . وكان بامكانهم استغلال الأرض وبيعها وتوريثها ورهنها (٣٩) . واذا اسلموا أُعفُوا من الجزية عادة، ولكنهم يستمرّون على دفع الخَراج . ورأى عمر بن عبد العزيز أن لهم الحرية في ترك الأرض عند اسلامهم ، ولكن أرضهم تؤول الى القرية، والاّ صارت للدولة .

ومع ان النبط أُعتُبِروا احرارا من حيث المبدأ ، الا أن المفاهيم المحلّية الموروثة التي تربطهم بالأرض والاعتبارات الاقتصادية أثّرت على وضعهم . وكانت الهجرة من الريف الى المدينة امرًا مألوفا ، بل وواسعة احيانا ؛ وهي ظاهرة ساعدت على التعريب . ومما يُيَسِّر التعريب أن النبط ساميّون يتكلّمون لغة لها قرابة بالعربية . ولعلّ هذا يفسّر سكوت المصادر عن انتشار التعريب بينهم (٤٠) .

هناك اشاراتٌ قليلة الى موال من النبط مع انهم — عدديا — يكوّنون جمهرة الموالي ؛ ولعل ذلك يعود الى ارتباطهم بالعرب في الأصول والثقافة . فالحَجّاج ، وقد اغضبه اشتراك مجموعة من القراء في ثورة ابن الأشعث ، قال عنهم « انما الموالي علوج ، وانما أُتِيَ بهم من القرى » ؛ ونفاهم الى قراهم (٤١) . وتَتَمَيَّز بعض النبط في أمور المال (٤٢)، مثل عميرة وحسان النبطي (٤٣) ، وفي الحرب، مثل مقاتل بن حيان . وكان لهم اثرهم خاصة على العربية في الكوفة (٤٤) .

ولقي العربُ في الفرات الاوسط (٤٥) وتَغْلِبُ في الجزيرة (٤٦) ، معاملةً مفردة، مما يُشعِر بالتوجيه الاسلامي ، اذ كانوا احرارا في بيع اراضيهم ، وعند اسلامهم تصبح أرضهم عشرية .

كان اثر العرب في المدن والريف واسعا ؛ فقد اصبح التسجيل في الديوان محدودا زمن المروانيين ، ولم يعد مفتوحا للجميع ؛ وكان على الذين لا يسجلون في الديوان (وبالتالي لا يأخذون العطاء) ان يبحثوا عن وسائل اخرى للعيش ، في التجارة او الزراعة او

المهـــن . يذكر المبرد ان المهلّب دَسَّ الجواسيس الـــى عسكر الخوارج فاتـــوه باخبارهم « فاذا حشوة مـــــا بين قصار وصباغ وداعـــر وحداد ... » (٤٧) . ويبـــدو أن هذه الظاهرة عامـــة لا تختصّ بالعراق ، ففي أخبار حملة ابـــن ابي بكرة على سجستـــان (٦٩٩/٧٩) قاتلت جماعة متطوّعة مـــن مذحج وهمدان (٤٨) . كمـــا ان بعض الأعراب القادمين الى المـــدن، مثل البصرة، صاروا في عـــداد « المساكين » على أطرافها (٤٩) . هـــذا الى أن بعض المقاتلة بقوا فـــي البوادي المطلّة على الســـواد يرعون مواشيهم وابلهم (٥٠). وتَردُ اخبـــارُ شعراء يتنقّلون بين قبائلهم في البوادي وبـــين عشائرها الموجودة في المراكـــز الحضرية، وخاصّة تميـــم (٥١) . وهذه الجماعات اختلطت بِحُرّيّـــةٍ باهالي البلاد السابقـــــين .

والتفت العـــرب ، وخاصة الاشراف واهل المـــدن، الى امتلاك الأراضي، وحصلوا عليهـــا بطرق مختلفة ــ بالاقطاع من الصوافـــي ، وباحيـــاء الأرض المـــوات (خاصة في منطقة البصرة) ، وبتجفيـــف المستنقعات (خاصة قـــرب الكوفة) ، وباستثمار الأراضي الخالية (٥٢) ، وبالشراء، وخاصة فـــي منطقة الحيرة حيث كان بيـــع الأراضي مباحا (٥٣) . وكان جُـــلُّ الضياع في البصرة مـــن الأرض الموات التي تـــم احياؤها بحفر القنوات وباستـــيراد الأيدي العاملة (من الزنج خاصـــة) . وشمل الشراء اراضي الخـــراج على نطاق واسع، حتى ان منع بيـــع الأرض الخراجية من قبـــل عمر بن عبد العزيز واخلافـــه لم يوقف هذا النشاط . وساعد الاحياء علـــى توسيع الملكيات .

ادى هـــذا الاقبال على الأرض الـــى ظهور ملكيات كبيرة ، بعضها يشمل قرى بكاملهـــا . وقد أدّت هذه التطورات الـــى خلخلة المجتمعات القرويّة المتماسكـــة والى فتحها للمؤثرات الخارجيـــة .

واعتاد العـــرب أن يستخدموا « وكـــلاء » للإشراف على ضياعهم ، وكان على الوكـــلاء ان يجلبوا الفلاحين الـــى الأرض، او ان يشغلوا فلاحين من القرى المجاورة . ومما يُسَّر مهمـــة الوكلاء ضرب الاقطاع القديم

وحالة الفراغ الناشئة عن ذلك،مما دفع الفلاحين للتحرك الى مواطن العمل الجديدة . وقد ادّى هذا الوضع ، اضافة الى العلاقات المتزايدة بين القرى والمراكز العربية — وهي الأسواق الرئيسية للريف — ، والصلات بين القرى والقبائل في البوادي المجاورة للكوفة والبصرة ، الى انتشار العربية تدريجيا وبصورة متزايدة في الأرياف (٥٤) .

وفي مطلع القرن الثاني للهجرة بدأ العرب بالاستقرار في القرى ، وساعدت السياسة العباسية على ذلك ؛ فقد اتخذ العباسيون موقفا سلبيًّا من بعض القبائل (المضرية) منذ بداية عهدهم ، ثم انتهوا الى اسقاط العرب من الديوان ايام المأمون والمعتصم ، وهذا دفع العرب الى التوسع في الاستقرار على الأرض (في الريف) ، والى اتخاذ مِهَن اخرى . فانتشر العرب في سواد الكوفة (٥٥) ، وانتقل الكثيرون من البوادي المجاورة الى الأرياف (٥٦) ؛ وهكذا ترد اشارات الى قرى عربية (٥٧) . وفي الجزيرة الفراتية تزايد عدد الجماعات العربية التي استقرت في القرى وانتشرت في الريف (٥٨) . ويعطي ديونيس التلمحري البيّنات على وجود عدد كبير من القرى العربية في الجزيرة (٥٩) ، ويُشعِر بوقوفهم الى جانب اهل القرى المحلّيين في وجه الادارة العباسية (٦٠) ، ويشير الى حصول مصاهرات بين الطرفين (٦١) . وهذا يشير الى تغيُّر العلاقات بين العرب والآخرين، والى توسّع التعريب ؛ وهو تطوّر بلغ مدى بعيدا في القرن الثالث الهجري،وجعل التعريب شاملا .

ويُنتَظر ان تكون العربية الدارجة في الريف ضعيفة ، كما يُتوقَّع ان لا تنجو عربية القرويين من اللحن (٦٢) ، وهذا لا يمنع ان تكون لغة البعض حسنة ؛ فقد اشار الجاحظ الى ان بعض اهالي سواد الكوفة يتكلّمون عربية حسنة بألفاظ متميزة،ومع ذلك يُحِسّ السامع بأنهم نبط (٦٣) .

وكان انتشار الاسلام ، وحركة العرب ، ونظام الولاء ، عوامل في نجاح العربية وفي التعريب .

ترجع جذور الولاء الى الجزيرة العربية قبل الاسلام . وقد يكون أثر عرب الجنوب مُهِمًّا في تطوُّر الولاء ، ولكن تراثهم لا يزال ينتظر الدراسة . فهناك اشارات في النقوش الجنوبية الى أن قبائل (سبئية) كانت تربط مجموعات اضعف بها عن طريق الحلف بسبب المصلحة لا النسب . وقد تَطلَّب استغلال الأرض ربط جماعات خارجية بالقبيلة،وأدّى الى نوع من الطبقية الاجتماعية،فهناك جماعات تستثمر الأرض (العائدة لقبيلة) لقاء جزء من الحاصل ، وهناك طبقة ادنى محميَّة تعمل لقبيلة في فلاحة الأرض (٦٤) .

أما بين عرب الشمال فان الولاء بالعتق او الحلف او الحماية كان مألوفا . وكان بامكان جماعات أن ترتبط بقبائل قوية بالحلف، ويُسَمَّون موالي موالاة (٦٥) . والحلف لا يعني بالضرورة المساواة في المنزلة،مع انه قد يعني مساواة في بعض المسؤوليات (٦٦) .

هذه المفاهيم استمرت في صدر الاسلام ؛ ففي ديوان عمر بن الخطاب جُعِلَت القبيلة ومواليها في سجل (ديوان) واحد وبعطاء واحد (٦٧) ، وفي الكوفة والبصرة حالفت الكتائب الفارسية (حمراء ديلم والأساورة) ، اضافة الى الأندغان والسيابجة ، قبيلة تميم (٦٨) . وانتقل بنو العم من الأهواز الى البصرة وحالفوا بني تميم (٦٩) .

وكان الموالي ابتداءً من أُرِقّاء (اسرى حرب) اعتقوا (موالي عتاقة) (٧٠) ، ولكنَّ جُلَّ الموالي كانوا من احرار اسلموا وانتقلوا الى المراكز العربية ، واكثرهم نبط (٧١) . وبعد ان أوقف عمر بن الخطاب سبي العرب (٧٢) ، صارت كلمة « مولى » تشير الى غير العرب ، بينما تشير كلمة « حليف » عادة الى العرب (٧٣) .

واستمر الولاء بهذه المفاهيم أيام الأمويين ؛ فقد صَنَّف عمر بن عبد العزيز الموالي الى : موالي عقد (اتفاق) وموالي رحم،وموالي عتاقة .

وكان ارتباط البعض بأمير أو قائد سببا لظهور « مولي التباعة » ؛ وهو اتجاه يفسر ما فعله العباسيون بعدئذ (٧٤) .

وكان الولاء يعني « الاسلام » « والعربية » في وقت واحد (٧٥) : فالأعاجم (من غير المسلمين) كانوا يَرَون انَّ مَن دخل الاسلام صار عربيا (٧٦) . وكان الموالي يتعلمون العربية ويتخذونها لغتهم ؛ وهكذا اعتبر الحَجّاج القراء من الموالي عربا (٧٧) . ويلاحظ أن بعض الموالي سُمُّوا بـ « المستعربة » (٧٨) ، وهو تعبير يطلق عادة على عرب الشمال . جاء في اللسان « والعرب المستعربة هم الذين دخلوا فيما بعد فاستعربوا . قال الأزهري : المستعربة عندي قوم من العجم دخلوا في العرب، فتكلموا بلسانهم، وحكوا هيئاتهم، وليسوا بصرحاء فيهم » (٧٩) . ويبدو ان المصاهرات ، وكانت مألوفة قبل فترة الحجاج ورائجة في الكوفة ايام عمر بن عبد العزيز (٨٠) ، ساعدت على توسيع التعريب . وهكذا اخترق الولاء اطار النسب القبلي، ووسّع الاطار العربي، وساعد على انتشار العربية .

ظهر الاسلام في بيئة مدنية ، وأكّد على طلب العلم ، وعنه نشأت اتجاهات الدراسة الأولى في المجتمع الاسلامي . وهذه الدراسات ، مع اهتمامات العرب الثقافية الموروثة ، كَوَّنت الخطوط الأولية للثقافة العربية الاسلامية . واستمرّ الحال كذلك لدرجة أن النظر الى الثقافات القديمة كان عرضيًّا خلال فترة تتجاوز القرن . وفي حين أن العربية اضطُرّت لمواجهة المفاهيم القبلية المحافظة والضيقة، بما فيها من عصبيّة، قبل ان تستطيع تحقيق قاعدة ثقافية واسعة ، فان الاسلام كان قوة دافعة متوسعة ، وكان بشكل ملحوظ عونا للعربية .

تركّزت الفعاليات الثقافية في صدر الاسلام في دور الهجرة ـ البصرة والكوفة خاصة ـ ، واقتصرت في الأساس على الموضوعات الاسلامية والدراسات العربية . كان هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥ هـ) يرى أن اسس الثقافة هي القرآن ، والآثار ، واحاديث العرب، واشعارها، وايامها ، وأنساب قريش وسائر بني نزار (٨١) .

وبدأت الفعاليات الثقافية بين العرب ، وبدرجة متواضعة ،

بين الموالي الذيـــن اتقنوا العربية (٨٢) . وتأثرت هـــذه الفعاليات بتيارين اساسيين : الأوّل ــ الاســـلامي ، ممثلا في الدراسات القـــرآنية والحديث والفقـــه والمغازي ، والثاني ــ العربـــي (القبليّ) وهو استمرار لميـــول سابقة ، في الشعر والايـــام والاخبار والانســـاب واللغة .

ويسترعي الانتباه ان التطورات الثقافية ســـارت في خطوط متوازية ومتدرجة : روايـــات فردية ومحدودة ابتداءً ، ثـــم حلقات من الطلبة يأخذون عن شيـــخ ويضيفون ابحاثهم الى علمه (٨٣) ، ثـــم تراكُم للمعرفة والدراسات يؤدي الـــى ظهور مدارس محلّيّـــة ، واخيرا تبادُل المعرفة والتأثير بين المراكـــز او المدارس المحلّية عن طريـــق الرحلات، مما أدى الى ظهور علمـــاء متميزين رسموا خطوط التطور المقبـــل . ويتضح هذا التطور في دراســـة الحديث والفقه والتاريخ وفي الدراسات اللغوية .

واجهت الأمـــة الاسلامية الناشئة مشـــاكل وحاجات مباشرة ــ منها انشاء الخلافـــة ومشاكلها ، ومعاملة المغلوبين والاراضي المفتوحة ، وتطبيق المبادىء الاســلاميـــة في الامصار لمواجهة الحاجات الجديـــدة . وكانت هـــذه النواحي بالغةَ الاهميّـــة للتطور الثقافي .

لقد شهد القرن الاول للهجرة رسمَ الخطوط الاساسية لمؤسسة الخلافة، مع ما رافقها من تبايُن واختلاف في الاتجـــاه ؛ ونشأت الاحزاب السياسية وطُوِّرت آراءهـــا التي كان لها بعض الاثـــر في الفقه (٨٤) . وظهرت آراء في الجبر والاختيار ومســـؤولية البشر عن اعمالهم ، وبـــدأ التنظيم الاداري والمـــالي من التراث المحلّي بعد تعديله بضـــوء مفاهيم اسلامية ، وكان يختلف في واقعـــه بين قُطر وآخر ، ثـــم عُرِّب وطُوِّر بالتدريج لينتهي الى إطار موحَّد فـــي بلاد الخلافة في أواخـــر الفترة الاموية .

وفي حين أن الفعاليـــات الثقافية بدأت عربية اســـلامية ولم تأخذ من الثقافات القديمـــة الا في فترة تالية ، فـــان الموقف من التراث الاداري والمـــالي المحلّي المتباين في الاقطار اتخـــذ اتجاها معاكسا ، اذ عُـــرِّب وطُوِّر لينسجم مع المفاهيـــم الاسلامية بصورة تدريجية، حتـــى ادخل اخيرا في النطاق الاســـلامي الثقافي والحضاري .

ارتبطت الفعاليات الثقافية بالحاجات الناشئة : فالدراسات الاسلامية الاولى تتصل بالقرآن ، اذ حاول القراء أن يعلّموا الناس القراءة الصحيحة،وان يُبَصِّروهم بالمفاهيم الاسلامية (٨٥) . بَعَثَ عمر بن الخطاب بعض الصحابة الى الأمصار (مثل ابن مسعود في الكوفة، وابي موسى الاشعري في البصرة) ليعلّموا الناس القرآن والسنة (٨٦) . قال اهل الكوفة لابن مسعود : « جُزِيتَ خيرا فقد علّمتَ جاهلنا،وثبّتَّ عالمنا،وأقرأتنا القرآن،وفقّهتنا في الدين » (٨٧) . ويُرْوَى الكثير عن عدد تلاميذ ابن مسعود وعن نشاطهم في الكوفة ، اذ كانوا « يُرُج هذه القرية (الكوفة) » كما قال سعيد بن جبير (٨٨) . وقد نالوا منزلة اجتماعية عالية بسبب تقواهم وحرصهم على رسالتهم (٨٩) . وشاركوا في الحياة العامة وفي الاحداث الكبرى من ايام عثمان الى ثورة ابن الاشعث (٩٠). وكانوا يدافعون عن المبادىء الاسلامية،وعن العدالة الاجتماعية . وانضمَّ اليهم بعض الاشراف ، وتزايد عدد الموالي بينهم (٩١) ، ولَعلَّ هذا يوضح سبب الارتباك في بداية ظهورهم . وتُشِيرُ فعالياتهم بالصلة الوثيقة بين النشاط الثقافي وبين الحياة العامة .

وشهد جيل التابعين بين القراء قضاة ، واصحاب فتيا (٩٢) ، وعلماء (٩٣) ، وفقهاء (٩٤) . يقول ابن سعد،« ثم كان التابعون بعد أصحاب رسول الله من ابناء المهاجرين ؛ والانصار وغيرهم فيهم فقهاء وعلماء،وعندهم رواية الحديث والآثار والفقه والفتوى » (٩٥) . وشملت دراساتهم الحديث والنحو والتفسير والفقه (٩٦) .

وكان دور القراء والعلماء والقضاة مُهِمًّا لتطوّر الفقه وبجنب الاعتماد على القرآن رجعوا الى السنة ؛ ويشار الى سنّة الرسول في فترة مبكرة . ثم ان المشاكل الجديدة في الامصار ادت الى الاجتهاد بالراي منذ زمن الراشدين (٩٧)، وواضح أن قيام الخلافة ومعاملة البلاد المغلوبة تطلّبت الاجتهاد والراي . وبالاضافة الى ذلك كان هناك الاتجاه الى اعتماد المفاهيم والقيم الاسلامية في مختلف نواحي الحياة،والى تطويع العرف المحلي ليلائم الاسلام .

وقد لجأ الصحابة الى الاجتهاد بصورة فردية أو بالشورى ، وصارت أقوالهم جزءا من الآثار ، كما كان للتابعين رايهم واجتهادهم . وأدى الوضع في الحديث الى تحديد استعماله من قِبَل البعض ، بينما لجأ آخرون ـ مع التشدّد في النقد ـ الى الآثار . وكان الراي يعطى بالقياس،أو وفق متطلبات المصلحة . ونشأ خَطّان في الفقه : فقه الراي وفقه الاثر ، وذلك بضوء التوسّع في استعمال الراي أو تقييده . ولم يكن التقسيم يستند الى قاعدة جغرافية (الكوفة ـ المدينة) بل الى الوجهة الخاصة بالفقيه (٩٨) .

وأدّى التباينُ في الظروف المحلية ومدى الاخذ بالراي او الاستناد الى الحديث والآثار،الى ان تظهر بصورة تدريجية سنن محلية أو طرق « عمل » . وتطورت هذه البدايات المحلية بعد فترة،ليخلفها الاجماع بمفهومه العام،وليكون اصلا آخر من اصول الفقه .

وقد ادت الجهود الجماعية والمتكاملة للعلماء الى قيام مدارس فقهية في العقود الاولى من القرن الثاني للهجرة . ويسترعي الانتباه انه لا توجد خلافات اساسية بين هذه المدارس في المبادىء أو الطريقة . وعلى العموم فان الرجوع للراي كان أوسع في العراق ، بينما كان التأكيد على الحديث اقوى في المدينة . وتَمَيّز بعض العلماء بدراساتهم الواسعة وبعلمهم في المدارس (المراكز العلمية)،مثل ابراهيم النخعي (٧١٥/٩٦) وحماد بن ابي سليمان (٧٣٨/١٢٠) في الكوفة ؛ والزهري (٧٤١/١٢٤) وربيعة الراي (٧٥٣/١٣٦) في المدينة ، وكان دورهم بداية التطور الذي ادى الى ظهور ائمة المذاهب (ابو حنيفة ، مالك ، الشافعي ، احمد بن حنبل) . وهذا التطور من الدراسات المشتركة المتكاملة (في المدارس) الى قيام ائمة (في الفقه) ـ وهو اتجاه يظهر أيضا في حقول ثقافية اخرى ـ يُشعِر بنضج المدارس الفقهية ، مما ادى الى ظهور المذاهب بطلوع القرن الثالث للهجرة (٩٩) .

وبدأت دراسة حديث الرسول (ص) في فترة مبكرة بين الصحابة ،

ثم شملت الدراسة آثار وسنن الصحابة . وكانت التطورات والحاجات الجديدة سببا لذلك ، كما ادت هذه الى الوضع في الحديث ، فالمصالح السياسية والحزبية والمحلية والمذهبية وجدت مجالا في وضع الاحاديث ، وادى الوضع بدوره الى التدقيق في نقد الحديث ؛ وهو تدقيق بدأ في المتن،وتركّز تدريجيا وبمرور الزمن على الاسناد ، وجاء علم الجرح والتعديل مثلا رائعا للتدقيق والحيطة والتوثيق .

وكان الاهتمام بجمع الحديث مبكّرا زمن الصحابة والتابعين في صحف واجزاء،وتلا ذلك « تقييد » الاحاديث في الصحف والروايات في اواخر القرن الاول واوائل القرن الثاني للهجرة ، ثم بدأ « التصنيف » او جَمعُ الاحاديث حسب الموضوعات لفائدة المشتغلين بالفقه وذلك في الربع الثاني للقرن الثاني للهجرة . وادّى حرص المحدثين على احاديث الرسول (ص) الى عمل مجموعات للحديث مرتّبة حسب رواتها من الصحابة من اواخر القرن الثاني للهجرة،ورافق ذلك تأكيدٌ خاصّ على الاسانيد . ومما يلاحَظ انّ كُتُب الطبقات الأُولى جاءت من نفس الفترة . واخيرا ، وخلال القرن الثالث للهجرة،وُضِعت المجاميع الاكثر شمولا وتدقيقا ، وهي كتب الصحاح ، ونُظّمت على فصول الفقه (١٠٠) .

واُستُخدِمَت الكتابة لحفظ الحديث جنبَ الرواية الشفوية ؛ وقد عرف الزهري بكتابة الحديث (١٠١) . وجاءت المجموعات الاولى للحديث من الثلث الثاني للقرن الثاني للهجرة ؛ وهي نفس الفترة التي جاءت منها المؤلفات الاولى في التاريخ (١٠٢) .

بدأ التفسير مبكرا في قراءة القرآن وكان على صلة وثيقة بعلم الحديث . وكانت المحاولات الاولى في الاساس شروحا لغوية للنصوص، واشارات الى ظروف نزول الآيات . وقد افيد من الشعر (الجاهلي) لتوضيح بعض الكلمات ، كما استند التفسير الى المأثور — حديث الرسول (ص) واقوال الصحابة (١٠٣) .

وتَطَوَّر التفسير بسرعة في عصر التابعين ، وأَخَذَ بعضُهم بالراي اضافة الى الآثار والشروح اللغوية ، ورجع البعض الى اهل الكتاب لتوضيح بعض الاشارات القرآنية ، فتسربت الاسرائيليات، واثارت شيئا من الشكّ والتحفّظ (١٠٤) . وهكذا بدت بوادر اتجاهين في التفسير : التاكيد على المأثور ، والرجوع الى الراي .

وقد اهتَمَّ بالدراسات القرآنية جماعاتٌ لهم اتجاهات دراسية مختلفة ؛ اذ نرى القراء واللغويين والمحدِّثين يشتغلون بالتفسير . وقد اسهم بعض القراء، مثل نصر بن عاصم (٨٩ هـ/٧٠٧ م) ويحيى بن يعمر (١٢٩ /٧٤٦) وبعضُ اللغويين، مثل عيسى بن عمر الثقفي (١٤٦/٧٧٦) وابي عمرو بن العلاء (١٥٢/٧٧٠) في التفسير .

واستُعمِلَت الكتابة في التفسير زمن التابعين ، وَوُضِعَت تفاسير من أواخر القرن الاول (مجاهد ١٠٤/٧٢٢ ، قتادة ١١٨/٧٣٦ ، عطاء الخراساني ١٣٣/٧٥١) .

واتسمت التفاسير من أواخر القرن الثاني بصورة عامَّة بطابع الجمع ، واحتوت على موادّ تاريخية وفقهية ولغوية . كما وُضِعَت في هذا القرن تفاسير لغوية لها اهمية خاصة، مثل مجاز القرآن لابي عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠/٨٢٥) ومعاني القرآن للفراء (٢٠٧/٨٢٢) .

ولجا المعتزلة الى الراي في التفسير (منذ القرن الثاني) مستفيدين من المواد اللغوية . ووضع المحدِّثون — الذين تحوي مجموعاتهم في الحديث عادة على قسم في التفسير — تفاسير منذ النصف الاول من القرن الثالث الهجري، معتمدين على الآثار بالدرجة الاولى .

وهكذا ظهر خطّان واضحان في التفسير : التفسير بالآثار ، وهذا بلغ قمته في تفسير الطبري (٣١٠/٩٢٣) ، والتفسير بالراي، الذي بلغ درجة عالية في الكشاف للزمخشري (٥٣٨/١١٤٣) (١٠٥) .

ـ ازدهر الشعـر خلال القرن الاول الهجري ، وتأثـر بالاوضاع السياسية والاجتماعية الجديـدة في المراكز الجديدة ، كمـا تأثر بالمفاهيم والقيم الاسلامية . ومـع أن الكثير من الشعر ينطوي علـى استمرار للشعر القديم في الاسلـوب والاخيلة ، فان موضوعات جديـدة ظهرت بالاضافة الـى النظرات والمنطلقات الجديدة (مثل الشعـر الاسلامي ، شعر النقائض ، الشعـر السياسي ، شعر الغزل) ؛ هـذا الى وجود الشعر الحضري جنـب شعر البادية ؛ كما ان تطـورات جديدة حصلت في الاسلوب . وجـاءت حركة التجديد الشعريـة في العصر العباسي الاول بشعر اكثر رقـة واعلى ثقافة ، واكـدت على موضوعات جديدة . ومع هـذا بقي للشعر القديم منزلة رفيعـة في عالم النظم (١٠٦) .

خرج العـرب من الجزيرة بلُغَـةٍ راقية وشعر رائع وتراث حضري جنوبي . وكانت للقبائـل لهجاتها (لغاتها) ولكـنَّ سكناها مجتمعةً في المراكز الجديدة ادت الـى ظهور عربية مشتركة فـي التخاطب . يقول الجاحظ : « واهـل الامصار انما يتكلمون على لغـة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجـد الاختلاف في الفاظ من الفاظ اهـل الكوفة والبصرة والشام ومصر » (١٠٧) . ولكنَّ القـرآن الكريم اعطى المثـال للعربية في الكتابة ، واعطاها وحـدةً واستمرارًا عبـر العصور .

وبدأت الدراسات اللغويـة في فترة مبكّرة ، وهي تُشْعِـر بالحرص على قراءة القـرآن بصورةٍ صحيحة،والحماس لنقاء اللغة العربيـة . لقـد أُستُعْمِلَت العربيةَ اعدادٌ متزايدة من الموالـي، وتعرَّضَت للَّحـن . واختلط العـرب بالاعاجم في الامصـار ، كما فُتحـت بيوتهم للسبايا ، مما اثَّر في لغـة الكثيرين (١٠٨) . ويُتَّخذ اللحـن خطورة واضحة في قراءة المصحـف ؛ وهي مشكلة تعرَّض لهـا حتّى البعض من الاعراب . جـاء في رسالة لعثمان تخوّفه مـن الابتداع « بعد اجتماع ثلاث فيكم ؛ تكامُل النعمـة،وبلوغ اولادكم من السبايـا،وقراءة الأعراب والاعاجـم القـرآن » (١٠٩) .

بـدأ اللحن في أواسط القرن الاول للهجـرة وانتشر في فترة التابعين ، وأدى الى رَدِّ فِعْـلٍ قويٍّ في الدوائر العربية وبين بعض الموالـي المتعربين، لحماية العربية وللحفاظ علـى صفائها . يُبيِّن الزبيدي أن ظهـور الاسلام ودخول الناس فيـه وكثرة من وُجـد تحت لوائه أدّى الى أن « اجتمعت فيه الالسنة المتفرقـة واللغات المختلفة،ففشا الفساد فـي العربية . فَعَظُم الاشفاق من فُشُـوِّ ذلك وغَلَبَتِه ، حتى دعاهم الحذر مـن ذهاب لغتهم وفساد كلامهـم الى أن سَبَّبوا الاسباب في تقييدها لمـن ضاعت عليه،وتثقيفها لمـن زاغت عنه » (١١٠) . كـل ذلك أوجد دافعا قويـا للدراسـات العربيـة (١١١) .

وترتبط بدايات النحـو أولاً بقراءة القـرآن ؛ فقد أُحدِثَت نُقَط لتمييز حركات الاعجام في القـرآن مِن قِبَل ابي الاسود الدؤلي (٦٩هـ/ ٦٨٨ م.) ، ولـذا يُنْسَب اليه وضع النحـو . ويعود الى الفترة ذاتها وَضْعُ النقاط لتمييز الحـروف المتماثلة،لضمان القـراءة السليمة (١١٢) .

وكان رُوّاد علـم النحو،من يحيى بن يعمر (١٢٩/٧٤٧) وعبد اللـه بن أبي اسحـق الحضرمي (١١٧/٧٣٥) الى الكسائي (١٨٩/٨٠٥) قُرّاء (١١٣) ؛ فَفَهْمُ القـرآن يَعني معرفة جيدة بلغتـه وبإعراب نصوصه . يقول الذهبي عـن الكسائي : « وكان من أهـل القراءة،وهي كانت علمـه وصناعتـه » (١١٤) .

ونظر البعض الـى اللغة على أنها في الاساس تواضُـعٌ واصطلاح ، بينما ذهب البعض الآخـر الى أنها توقيف ؛ وهمـا وجهتان متدرجتان، تعبّران عـن نظرتين في النحو ؛ فقد كـان السماع من اسس الدراسات اللغوية ، كمـا أُعتُبِر القياس مع التعليل قاعـدةً أخرى في النحو . وكان لكلٍّ مـن الاتجاهين مؤيدون في البصرة (١١٥) . ثـم ساد القياس في البصرة (مهد النحـو) والسماع في الكوفة . ويبـدو أن بيئة الكوفة العربيةالسـامية في الاساس أقرب الـى الاتجاه الى السماع والسليقة ، امـا بيئة البصرة التجارية المختلطة فانهـا تطلّبت قواعد أكثر تحديدا لفهـم اللغة . اكدت البصرة على القياس لوضع قواعـد

عامة،اما الشواذ فانها سُجِّلت وأُهمِلت ؛ واما الكوفة فانها رأت في ان يُسارَ وفق السماع،وتجوَّزت في وضع القواعد الى حدّ الاستناد الى النوادر عند الحاجة (١١٦) . وقد ورثت بغداد المدرستين ، ولكنها كانت أميل الى الاتجاه الكوفي . واخيرا تَفوَّق الاتجاه الى السماع على وجهة القياس،وانتصرت بذلك المحافَظَة . وهذا يثير السؤال عن مدى تأثير القراءات المقبولة في تفوُّق السماع (١١٧) .

وسارت الدراسات اللغوية الى جنب دراسة النحو ؛ فالحاجة الى فهم القرآن ، والحديث أحيانا ، دعت الى الرجوع للشعر والى عربية البادية . ذهب اللغويون الى البادية،الى الاعراب الفصحاء، (وجاء بعض هؤلاء الاعراب الى المدن) للأخذ عنهم (١١٨) . وكانوا — وخاصة البصريون — حذرين في بحثهم عن العربية الصافية ، ولذا تجنَّبوا في الغالب القبائل التي تأثرت بأهل الحواضر القريبة . ومع ان تأكيد الروايات على الأَخذ من الاعراب البادين لا يخلو من مبالغة ، فان هذا الأَخذ في عامَّته ادى الى تسجيل ما يتّصل اساسا بالحياة البدوية .

كان ابو عمرو بن العلاء (١٥٤/٧٧٠) شيخ الدراسات اللغوية في عصره ، يُعرَف بانه اعلم الناس بالعرب وبلغتهم،وبالشعر والايام، وبالقرآن . وكانت « عامة اخباره عن أعراب قد ادركوا الجاهلية » . وكان اثره كبيرا في إعداد طلبة نابهين من الجيل التالي (١١٩) . وقامت ابحاثٌ واسعة ومركزة على يد الجيل التالي في البصرة ، وتَمَيَّزَ بينهم ثلاثة من تلاميذ ابي عمرو بن العلاء : ابو عبيدة معمر بن المثنى (٢١١/٨٢٦) وأبو زيد الانصاري (٢١٥/٨٣٠) والاصمعي (٢١٧/٨٣١) ، وهؤلاء افادوا في بحوثهم من اساتذة آخرين ومن ثقات الأَعراب ، حتى قيل فيهم : « عنهم أُخِذ ما في ايدي الناس من هذا العلم،بل كلُّه » (١٢٠) . وكان اعلام المدرسة اللغوية في الكوفة الكسائي (١٨٩/٨٠٥) والفراء (٢٠٧/٨٢٢) والمفضل الضبي (١٧٠/٧٨٦) وابن الاعرابي (٢٣١/٨٤٤). وهكذا نضج هذا الاتجاه في الدراسات في أوائل القرن الثالث للهجرة (١٢١) .

وكانت المجموعات الاولى للكلمات عفوية دون خطّة ، ثم تلتها مجموعات تدور حول موضوع او مادة . واخيرا جاء الخليل بن احمد الفراهيدي (٧٩١/١٧٥) بفكرة اول مُعجم (العين) ، وتحقّقت فكرته على يد تلميذ له، وربما بمشاركة آخرين . وسار علماء اللغة بعده على خطته، الى أن وضع الجوهري (١٠٠٧/٣٠٨) خطة اخرى (١٢٢) .

جاءت القبائل بلهجاتها (لغاتها) الى المراكز الجديدة (١٢٣) ؛ وهذا اكسب العربية حيوية وغنى . ثم ان استعمال العربية على نطاق واسع بين غير العرب ، والاختلاط في البيئات الجديدة، وتطوُّر الحياة في المدن، ترك آثاره وأدّى بالتدريج وبين الطبقات الدنيا الى ظهور عربية للتخاطب تتّصف بالبساطة، ولا تلتزم بقواعد النحو (١٢٤) ؛ وبدا ذلك بوضوح في أواخر القرن الأول . ومع ذلك فان الحَجّاج كان يرى ان دُور الهجرة (الكوفة ، البصرة) هي « موضع الفصاحة والاعراب » . واثنى بحشل على اهل واسط لفصاحتهم ، وعَلَّلَ ذلك بأن الحجاج « كان لا يدع احدا من اهل السواد يسكن واسطا » (١٢٥) .

وفي القرن الثالث الهجري ، والعربيّة لغة الثقافة ، كانت الفصاحة ما تزال تُقْرَن بعربية الاعراب الأقحاح . وبجنب هذه اللغة يشير الجاحظ الى لغة المولدين والبلديين بتركيبها واعرابها (١٢٦) . وعلى كلٍّ، فبالاضافة الى لغة التخاطب اليومية ، التي لا تخلو من لون محلي ، صارت العربية لغة الحضارة، وفيها المرونة التي تتطلّبها الحاجات الثقافية والحضرية . ومع ذلك استمرّت الجهود للحفاظ على صفاء اللغة، وعلى جعل النحو اداة فعالة تُمكّنُ الجميعَ من اتقانها عن طريق التعلم (١٢٧) .

وبدأت دراسة التاريخ وكتابته في خَطّين — اسلامي وقَبلي ؛ ففي المدينة اتجهت الدراسات التاريخية الى المغازي والجماعة الاسلامية الاولى، ثم شملت تاريخ الأمة . وفي الكوفة (ثم البصرة) اتجهت الدراسات الى نشاط الخلافة، والى فعاليات القبائل وشؤون الامصار .

وكان المحدّثون روّاد المغـازي، في حين نهض الأخباريون بالدراسـات التاريخية في الكوفـة ، وشارك فيها لِحَـدٍّ ما بعض النسّابين واللغويين .

تناول الأخباريّون فـي دراساتهم كلَّ جوانب التاريخ الاسـلامي في كتب يتعلق كـلٌّ منها بموضوع او بفترة . وبينمـا يلاحظ اسلوب المحدّثين في التدقيـق والاسناد في كتابة المغـازي، فان الاخباريين يشعرون باستمرار نواحي الاهتمـام القبلية، وباثر اسلـوب قصص الايام . وكان عروة بـن الزبير (٧١٢/٩٤) رائـد مدرسة المغازي، واستقرّ هيكل السيرة على يـد تلميذه الزهري (٧٤٢/١٢٤) بينما كَتَـب الاخباريون في الجيـل التالي لـه .

وهكذا نشأت الدراسـات التاريخية في الاسـلام، وتطورت في نطاق الثقافة العربية الاسـلامية . أما الترجمات لِسِيَر الملوك مـن الفهلوية ، والأُخذ مـن الاسرائيليات، فانها أُدخِلَت مـادة ضعيفة الى الدراسات التاريخية، ولكنها لـم تأت بفكرة أو بمنهـج .

وشهد القرن الثالـث الهجري تبادل التأثير بـين مدرستي التاريخ في المدينـة والكوفة، في الأسلوب والافـق والمفاهيم التاريخية ، ويلـي ذلك ظهور المؤرخـين الكبار بعد منتصف هذا القرن ، وهـم يمثّلون قمـة التطور في الدراسات التاريخية فـي فترة التكوين (١٢٨) .

وكانت الصلات بالثقافـات الاخرى شفوية ومحدودة : فهنـاك الاسرائيليات ، وبعض اللاهوت المسيحي ، وبعض الاقـوال القانونية التي تسرَّبت عـن طريق الداخلين في الاسـلام ، اضافة الى قليل من الهلنية . واثيرت اسئلـة عن حرية الراي، والصفات الالهيـة، وخَلْق القـرآن . ولا يخفـى أن مسألة حريـة الارادة والاختيار ـ كما في كثير من القضايـا الاساسية ـ بدأت كمشكلة سياسية فـي العصر الاموي ، ولكن الاتصال قـد يترك بعض الاثر . ويلاحَـظُ تَسَلُّل بعض الآراء الدينية الفارسية في بيئـة الكوفة عن طريق بعض المسلمين الجدد ؛ وهذا يلحظ عنـد الغلاة . ولكن هذه الصلات كانـت أولية، ولا يوجد ما يدل على اقتباس متعمَّـد الا في الحاجات المـادية .

وأدّى تعريب الدواوين زمن الأمويين (من ايام عبد الملك بن مروان الى ايام هشام بن عبد الملك) الى إغناء العربية ، وساعَدَ على ان تصبح لغة الثقافة للمسلمين وغيرهم . وقد فتح التعريب الباب للشعوب الاخرى في المجتمع الاسلامي للمساهمة في الثقافة وتأكد ذلك بعد الثورة العباسية .

وكان للتراث المحلّي ، الاداري والمالي خاصة ، اثره ؛ وكان للمسلمين أن يأخذوا ما يرون ما دام لا يتعارض والمفاهيم الاسلامية . وقد ادخل المسلمون عليه ابتداءً تعديلاتٍ بضوء المبادىء الاسلامية ، ثم طَوَّروه وعرَّبوه،واخيرا تمثّلوه في مجرى الحضارة العربية الاسلامية .

وان وُجِدَت اشارات الى بدايات اولية وفردية للترجمة زمن الامويين ، فان العباسيين نَظَّموا الترجمة وشجّعوها في العلوم والطب والفلك،واخيرا — من اواخر القرن الثاني — في الفلسفة . وهذه الترجمات لم تُدخِل عنصرا غريبا غير مؤتلف في الثقافة،عدا الفلسفة التي تضمّنت احيانا آراء ومفاهيم لا تنسجم والمبادىء الاسلامية . وحاول العلماء المسلمون ان يفيدوا من المنطق اليوناني،وان يوفقوا بين الفلسفة والاسلام في الشكل والمضمون .

وهناك خَطٌّ آخر للترجمة — من الفهلوية بالدرجة الاولى — تَبنّاه الكُتّاب وبعضُ رجال الأدب ، وشمل مؤلفاتٍ ادبيةً وتاريخيةً ودينية . وكان لهذه الترجمات بعض الاثر في الآراء وفي بعض الحركات الدينية السياسية الخارجة ، وكانت تتّصل بالصراع الثقافي مع الشعوبية . وربما كان للاحتكاك والصراع الثقافي اثرٌ في تجديد الاهتمام بالتراث الادبي العربي،وفي تأكيد جديد على العربية وصلتها بالاسلام،وفي تجديد التأكيد على العربية أساسا للعروبة .

وفي هذه الفترة لم تَعُد الرسالةُ الدينية التي حملها العرب ابتداءً قاصرةً عليهم،بل شاركهم فيها المسلمون مختلف الشعوب ، وأصبحت رسالة العرب ثقافية حضارية .

(١) انظـر :

N. Poliak - L'Arabisation de L'Orient Sémitique, R. E. I. 1938, pp. 35-63
W. Marcais - Comment L'Afrique du nord a été Arabisee, Articles e Conférences (Paris 1961) pp. 171 - 192 ;

R. Blachere - Regards sur L'acculturation des Arabo - Musulmanes, Arabica, III, pp. 247 - 65.

(٢) الشيباني ـــ السير ، ج ١ ، ص ٨٨ ، ص ٩٤ ـــ ٩٥ .

(٣) الطبري ـــ تاريـــخ ، س ١ ، ص ٢٨٦٠ . البلاذري ـــ انساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١١٤ . قـــال الاحنف بن قيس اثناء الفتنـــة في البصرة سنة (٦٤هـ) يرد على اقتراح الغضبان القبعثري بـــأن تترك تميم البصرة « امـــا خروجنا من المصر فانا لا ندع مهاجرنا ومركزنا وفيئنا اللـــه علينا فنتعرب بعـــد الفتنة » . وجاء في لسان العرب : « وكان من يرجع بعـــد الهجرة الى موضعه ، مـــن غير عذر ، يعدونه كالمرتـــد » ، مـــادة « عـــرب » .

(٤) المبـــرد ـــ الكامل (باعتناء أبي الفضل ابراهيم وشحاتـــه ، القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ، ص ١٤١ .

(٥) يقول ابن سعـــد عن الزبرقان بن بدر ، الـــذي ثبت على الاسلام خلال الردة : « وكان ينزل أرض بنـــي تميم ببادية البصرة ، وكان ينزل البصرة كثيرا » . ويقـــول عن الاقرع ابـــن حابس « وكان ينزل أرض بنـــي تميم ببادية البصرة » . الطبقات ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٢٤ .

(٦) في ابن سعـــد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٣٩ : « سمعت ابـــي يقول : نهاني رســـول اللـــه ، أو سمعت رسول اللـــه (ص) ينهى عن القناءة ، فمـــن اقام ببلاد الخراج فقد قنـــا ، فانا اكره ان اقيـــم » .

وجاء في اللســـان : « من قنا في أرض العجم فعمل نيروزهم ومهرجانهم حشر معهـــم » ، مادة « قنا » . وانظـــر : حلية الاولياء .

(٧) البلاذري ـــ انساب ، (خـــط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ ، ص ١٢٣٥ .

(٨) انظر : رسائـــل الجاحظ (تحقيق عبـــد السلام هارون) ، ج ١ ، ص ١٠ ـــ ١١ .

(٩) الطبري ، س ٢ ، ص ١٥٠٥ ـــ ٦ .

(١٠) البلاذري ـــ انساب (خـــط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ .

(١١) في طور عابدين وآمـــد ورأس العين ونصيبين والرهـــا .

(١٢) انظـــر : Dillemann - Haute Mesopotamie Orientale (Paris 1962) PP. 34 - 8, 88 - 9 .

الطبري ، س ١ ، ص ٨٢٧ ؛ الاغاني ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ـــ ١ .

البكري ـــ معجـــم ما استعجم (باعتناء السقـــا ، القاهرة ١٩٥٤) ج ١ ، ص ٢٣ .

(١٣) الطبري ، س ١ ، ص ٢٤٨٩ ، ص ٢٥٠٥ . البكري ـــ معجم ، ج ١ ، ص ٢٣ ـــ ٤ . ابـــن اعثم ـــ فتوح ، ج ١ ، ص ٨٨ ـــ ٨٩ ،

Musil - Middle Euphrates (New york 1927), p. 285

(١٤) البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٤٨ ، وانظـر : ص ٢٤٩ .

(١٥) الهمداني ــ صفة جزيرة العـرب (باعتناء الاكوع ، دار اليمامـة) ، ص ٧٠ ، ص ٢٧٥ ، ص ٣١٩ . البكري ــ معجـم ، ج ١ ، ص ٢٣ ــ٢٤ . البلاذري ــ فتوح ، ص ١٨٢ ، Musil, op. cit., p. 312.

(١٦) البلاذري ــ فتوح ، ص ١٧٧ .

(١٧) البكري ــ معجم ، ج ١ ، ص ٦٩ ــ ٧١ ، E. I.(2) Bakr b. Wail

(١٨) الطبري ، س ١ ، ص ٨٢١ ــ ٨٢٢ ، ص ٢٤٩ . وانظـر : س ١ ، ص ٧٢٤ ، ص ٧٤٧ عـن قدم العرب في العراق ، البكري ــ معجم ، ج ١ ، ص ٥٢ ــ ٥٣ . هذا اضافة الـى جماعة من بكر بن وائل ، المبـرد ــ الكامل ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(١٩) الهمدانـي ، ص ١٤٩ .

(٢٠) البكري ــ معجم ، ج ١ ، ص ٨٥ ــ ٨٦ . ابن أعثم الكوفي ــ فتوح ، ج ١ ، ص ٨٨ ــ ٨٩ . ويذكـر الهمداني أنها تمتد من الابلة الـى هيت ، ص ١٦٩ . وكان امارة ميسين (ميسـان) عند مصب دجلة يحكمها عرب والدون مـن عمان وذلك قبل قيـام الحيرة . كرستنسن ــ ايران زمـن الساسانيين ، ص ٧٥ . وانظـر : Musil, op. cit., p. 285. E. I (2) Bakr ibn Wail

(٢١) الجاحظ ــ البيان والتبيين (باعتناء ، عبـد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٠ ــ ١) ، ج ٢ ، ص ١٣٠ . البلاذري ــ فتوح ، ص ٤٨٨ ، انسـاب ، ج ٤ ق ١ ، ص ١٩٠ ، ص ٢٠٢ . الطبري ، س ٢ ، ص ٤٣٣ .

(٢٢) الطبري ،س ٢ ، ص ٤٣٤ . البلاذري ــ انسـاب ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١١٦ .

(٢٣) الطبري ، س ١ ، ص ٢٨٠٤ .

(٢٤) ن. م. ، س ١ ، ص ٢٨٠٥ . البلاذري ــ فتوح ، ص ٣٥٠ . ياقوت ــ معجـم البلـدان ، ج ١ ،ص٤٩٢ .

(٢٥) البلاذري ــ فتوح ، ص ٣٣٤ . الازدي ــ تاريـخ الموصل (باعتناء علـي حبيبة ، القاهرة ١٩٧٦) ج ٢ ، ص ١٨٣ ، ص ٣١٣ ــ ٣١٥ ، ص ٣٣٢ ، ص ٣٥٠ . ياقوت ــ بلـدان ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٢٦) البلاذري ــ فتوح ، ص ١٧٧ .

(٢٧) ن. م. ص ١٧٨ . ياقوت ــ بلـدان ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(٢٨) الهمداني ، ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ . الازدي ــ تاريـخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٢ ، ص ٣١٤ــ ٣١٥ .

(٢٩) الطبري ، س ٢ ، ص ١٨٧٤ .

(٣٠) يشير البلاذري مثلا الـى مسالح أو حاميات في الابلـة والخريبة والعذيب وعيـن التـمر وعلى اطراف الفـرات الاوسط ، فتوح ، ص ٢٤٢ ــ ٣ ، ص ٢٤٦ ، ص ٢٥٤ ــ ٥ ، ص ٢٥٠ ، ص ٢٧٦ ــ ٧ ، ص ٢٤١ . وانظـر : ابن مـحمد ،

ج ٧ ، ق ١ ، ص ٧٧ ، ص ١٢١ . ابـو يوسف ـ الخراج (بولاق ١٣٠٢) ، ص ٨٣ ـ ٤ . المسعـودي ـ مروج ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ـ ١ .

(٣١) الصولي ـ أدب الكتّاب ، ص ٧٥ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٦٥ . يحيى بن آدم ـ الخراج ، ص ٤ . ابـو يوسف ـ الخراج ، ص ٨٥ .

(٣٢) المسعودي ـ التنبيـه والاشراف ، ص ٣٨ . ابـو يوسف ـ الخراج ، ص ٢٣ .

(٣٣) تـاج العروس ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ـ ١ (نبـط) ، ويسمون ايضـا الكلدانية . ياقوت سبلـدان ، ج١ ، ص ٢٤٧ ـ ٨ ، ج ٣ ، ص ١٧٥ . المسعـودي ـ مروج ، ج ٢ ، ص ٩٥ ومـا بعدها .

(٣٤) انظـر : يحيى بن آدم ـ الخراج ، ص ٥٧ ـ ٩ .

(٣٥) ن. م. ص ٢٢ ـ ٢٣ . ابـن وحشية ـ الفلاحة النبطية (خـط ـ مكتبة أحمـد الثالث ، رقـم ١٩٨٩/١) ، ص ١ ـ ٢ .

(٣٦) المسعودي ـ التنبيـه ، ص ٣٩ .

(٣٧) يحيى بـن آدم ـ الخراج ، ص ٢٢ ، ص ٤٨ . بحشـل ـ تاريخ واسط (باعتناء : كوركيس عـواد ، بغداد ، ١٩٦٧) ، ص ٣٩ ـ ٤٠ . الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٢٦ ، ص ٢٠٢٨ ـ ٩ ، ص ٢٠٣١ ، ص ٢٠٣٦ .

(٣٨) العسكري ـ الاوائل ، ص ١٣٦ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٢٦ وبعدهـا . وانظر : ابـو عبيد ـ الاموال ، ص ١١٣ ومـا بعدها . الطبري ، س ١ ، ص ٢٣٧٠ .

(٣٩) يحيى بـن آدم ، ص ٤٥ ، ص ٥١ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٤٢ ـ ٣ . ابـو عبيد ، ص ٨٢ ـ ٨٣ . قدامة بـن جعفر ـ كتاب الخراج (باعتناء : دي خوية) ، ص ١٤٥ .

(٤٠) ذكـر وكيع ان داود الطائي تكلم امام الحجاج فقال لـه الحجاج : « الكلام كلام عربـي ، والوجـه وجـه نبطي » مما يشعر بـأن تمييز من يعلم من النبط لـم يكن مألوفـا . اخبار القضاة ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .

(٤١) انظر : المبـرد ـ الكامل ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

(٤٢) أنظر : تـاج العروس ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، والبلاذري ـ فتوح ، ص ٢٧٩ . ومدح سـعد بـن ابي وقاص بأنه « نبطي في جبايته » .

(٤٣) كان عميرة كاتـب اشرس بن عبد اللـه أمير خراسان سنـة ١١٠ هـ نبطيا . انظر : البلاذري ـ انساب (خـط) ق ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٤٤) انظر : رسائـل الجاحظ (تحقيق عبـد السلام هارون) ج ١ ، ص ٦٦ .

(٤٥) اعتبرت اراضـي الحيرة وبانقيا واليس ارض صلـح ، وكان اهل هذه القـرى يدفعون جزية مشتركة فقـط . انظر : البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٤٣ ـ ٤ . ابـو عبيد ـ الاموال ، ص ٣٩ ـ ٤٢ ، ص ١١٦ ـ ١١٨ . يحيى بـن آدم ، ص ٥ . واتبع نفس الاجراء مع عـين التمر ، البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٤٨ .

(٤٦) كانت تغلب تدفع ضعف الصدقة ، ابو عبيد ، ص ٣٩ ــ ٤٢ .

(٤٧) المبرد ــ الكامل ، ج ٢ ، ص ١٠٦٢ ــ ٢ . ويشير البلاذري الى نساج من بني سليم في الكوفة قال : « وان ما شهدت عسكرا قط ولا اثبت لي اسم قط في ديوان ، وانما انا نساج » انساب (خط) ق ٢ ، ص ٣ .

(٤٨) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ١٦ . وانظر : يحيى بن آدم ــ الخراج ، ص ٢٠ .

(٤٩) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٣ ، ص ٨٢٢ . الطبري ، س ٢ ، ص ١٦٨٣ ــ ٤ . ديونيسيوس التلمحري (الترجمة الفرنسية) ، ص ٩٣ .

(٥٠) يقول ابن سعد عن العباس بن مرداس بن ابي عامر : « وكان ينزل بوادي البصرة ، وكان يأتي البصرة ، وروى عنه البصريون ، وبقية ولده ببادية البصرة ، وقد نزل منهم قوم البصرة » ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٢١ .

(٥١) Blachere - Histoire de la Literature,t. 3, pp. 276 - 7.

(٥٢) ابو عبيد ــ الاموال ، ص ٢٧٦ . ابو يوسف ، ص ١٥ . ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١١٧ ــ ٨ . الطبري ، س ١ ، ص ٢٣٧٦ ، البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ ، ص ٣٨٢ ، ص ٤١٩ ، ص ٤٨٠ .

(٥٣) البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٤٣ ــ ٤ . ابو عبيد ــ الاموال ١١٦ . يحيى بن آدم ، ص ٥١ . واكد عمر بن عبد العزيز على أن اهل الحيرة من يهود ونصارى ومجوس لا يدفعون الا الصدقة بعد اسلامهم ، « فمن اسلم ... فعليه في ماله الصدقة » . الصولي ــ ادب الكتّاب ، ص ٧٥ .

(٥٤) انظر : المبرد ــ الكامل ، ج ١ ، ص ٤٣٩ ــ ٤٠ .

(٥٥) الطبري ، س ٢ ، ص ١٦٤٨ .

(٥٦) ن. م. س ٢ ، ص ٩٧٧ .

(٥٧) ن. م. س ٢ ، ص ١٠١٨ قرية الاعراب .

(٥٨) الازدي ــ تاريخ الموصل ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ، ص ٢٨٧ .

(٥٩) ديونيسيوس التلمحري ــ تاريخ ، ص ٤٧ ، ص ٨٩ ، ص ١١٤ ، ص ١٢٩ .

(٦٠) ن. م. ص ٤٧ .

(٦١) ن. م. ص ٩٤ .

(٦٢) انظر : الجاحظ ــ بيان ، ج ٢ ، ص ٧١ . يقول الجاحظ : « وزعم ابو العاص انه لم يسر قرويا قط لا يلحن في حديثه ، وفيما يجري بينه وبين الناس » بيان ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

(٦٣) يقول الجاحظ : « وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظة متخيرا فاخرا ، ومعناه شريفا كريما ، ويعلم مع ذلك السامع

لكلامه في مخارج حروفه أنـه نبطي » رسائل الجاحظ (هارون) ج ١ ، ص ٦٦ .

(٦٤) انظـر : Ryckmans - Arabie Meridionale, p. 67, pp. 71 - 2

(٦٥) أبـو عبيدة ـ النقائض (تحقيق بيفان) ص ٤٢٤ . تـاج العروس ، مادة (ولاء) . وانظر : البلاذري ـ أنساب ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ص ١٨٩ ، ١٩٢ .

(٦٦) انظر : ابـن هشام ـ السيرة ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٦٧) البلاذري ـ أنسـاب ، ج ١ ، ص ١٩٢ ـ ٣ من عطاء خثعم والاحابيش .

(٦٨) الطبـري ، س ١ ، ص ٢٥٣٨ ، ص ٢٥٦٢ . البلاذري ـ فتوح ، ص ٢٨٠ . الانسـاب ، ج ٤ ، ت ٢ ، ص ١٠٧ ، ص ١١٢ . الانساب (خـط) ق ١ ، ص ٨٨٣ ـ٤ .

(٦٩) الطبري ، س ١ ، ص ٢٥٣٨ . انظـر : السرخسي ـ المبسوط (القاهرة ١٩٣٢) ، ج ٨ ، ص ٨١٥ .

(٧٠) الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٢٨ ـ ٩ ، ص ٢٠٣١ ، ص ٢١٢٢ ، ص ٢١٦٧ ، ص ٢١٧٠ .

(٧١) انظر : الطبري ، س ٢ ، ص ٧٤٨ ، ص ٧٥٠ .

(٧٢) اليعقوبي ، ج ٢ (ط . هوتسما) ص ١٠٥٨ . صالح العلي ـ التنظيمات الاجتماعية في البصرة ، ص ٦٥ .

(٧٣) البلاذري ـ الانسـاب ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١٨٠ ، ص ١٨٥ . ابـن سعد ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٦٠ . يقـول الشيرازي عن عبد اللـه بن ابي اسحق أنـه « مولى آل الحضرمي وهـم حلفاء بني عبد شمس بن عبـد مناف ، والحليف عند العرب مولى » . طبقـات الفقهاء ، ص ٣٧ .

(٧٤) الطبري ، س ٢ ، ص ٨٣٤ ـ ٥ . كون البعض مثـل عباد بن زياد ، والمختار وسليمان بـن هشام بن عبد الملك كتائب من الموالي . انظـر الطبري س ٢ ، ص ٥٢٣ ـ ٤ . البلاذري ـ أنسـاب ، ج ٥ ، ص ١٣٦ ، فتوح ، ص ٢٣٦ . أنساب (خـط) ق ٢ ، ص ٤٣ ، ص ٣٦ . ابن سعد ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ .

(٧٥) انظر : البلاذري ـ أنساب (خـط) ق ١ ، ص ٥٩٩ .

(٧٦) حينما وعـد اشرس أمير خراسان (١١٠ هـ) اعفاء مـن يسلم من الجزيـة واقبل الناس علـى دخول الاسلام « فجاء دهاقين بخارى الـى اشرس فقالوا . ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربـا ! » الطبري س ٢ ، ص ١٥٠٥ ـ ٦ .

(٧٧) البلاذري ـ أنساب (خـط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ .

ولمـا تمنى العريان صاحب شرطة خالد القسري عليه منع الموالـي من استعمال العربية ، أجاب مولى بلهجة ساخـرة « أما الكلام فلـن يتكلم الا بالزنجية ! » البلاذري ـ أنساب (خـط) ق ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٧٨) الخصائص لابن جني ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ ، أبو الطيب ــ مراتب ، ص ٥ (المتعربين) . أنظر : الاغاني (دار الكتب) ج ١٤ ، ص ٢٨٨ .

(٧٩) لسان العرب ، مادة « عرب » .

(٨٠) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ١٢٥٨ ، ص ١٧٧ .

ومع أن الولاء لا يساوي النسب تماما ، فانه قد يؤدي الى الاندماج في الجماعة العربية « الاسلامية » . انظر الخلاف حول نسب ابراهيم النخعي في المبرد ، ج ٣ ، ص ١١٨٤ . وجاء في ابن سعد على لسان سعيد بن جبير ــ « وقال لي ابن عباس : ممن انت ؟ قلت من بني اسد ، قال : امن عربهم او مواليهم ؟ قلت : لا ، بل من مواليهم ، قال : فقل أنا ممن انعم الله عليه من بني أسد » . الطبقات ، ج ٦ ، ص ١٩٨ .

(٨١) جاء في البلاذري ، أن هشام بن عبد الملك سأل رجلا من بني مخزوم (اخواله) : « يا خال ! اتقرأ كتاب الله ؟ قال : اقرأ منه ما اقيم به صلاتي ، قال : أفتروي من الأشعار شيئا ؟ قال : لا ، قال : أفتعرف احاديث العرب واشعارها وايامها ما يعرفه مثلك ؟ قال : لا ، قال : أفتنسب قريشا وسائر بني نزار ؟ قال : لا أحسن من النسب شيئا . قال : يا غلام ... فليس من خالنا حشمة » . أنساب (خط) ق ٢ ، ص ٢٤٠ . وانظر : الجاحظ ــ البيان ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٨٢) ان استعراض اسماء من ترجم لهم (من فترة صدر الاسلام) في مؤلفات مثل طبقات ابن سعد ، واخبار القضاة لوكيع ، وطبقات الفقهاء للشيرازي ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ، ونزهة الالبّاء في طبقات الادباء للانباري ، يبين أن الموالي كانوا اقلية ــ حوالي ٢٥ ــ ٣٠٪ .

(٨٣) يروي الاعمش عن هلال بن يسار « قال : قدمت البصرة فدخلت المسجد فاذا أنا بشيخ أبيض الرأس واللحية ، مستند الى اسطوانة في حلقة يحدثهم ، فسألت من هذا ؟ فقالوا عمر بن الحصين » (ت سنة ٥٣ هـ) ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٥ .

(٨٤) أنظر : ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٥١ ــ ٥٢ ، ص ٥٤ ، ص ٥٥ ، ص ١٧٣ ، ص ١٩٢ ، ص ٢١٩ ، ص ٢٣٦ . الطبري س ٢ ، ص ١٩٦٦ .

(٨٥) في الذهبي ــ معرفة القراء الكبار (القاهرة ١٩٦٧) ج ١ ، ص ٤٦ « فكنا نتعلم القرآن والعمل به » . وانظر : ص ٤٨ ، ص ٧٣ ــ ٧٤ . وانظر الشيرازي ــ طبقات الفقهاء (باعتناء احسان عباس ، بيروت ١٩٧٠) ص ٤٣ ، ص ٤٤ ، ص ٤٦ ، ص ٥١ .

(٨٦) البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٧٥٥ ، ص ٧٦١ . وانظر : ابن سعد ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٧ . الذهبي ــ القراء الكبار ، ص ٣٤ ، ص ٣٧ ــ ٩ .

(٨٧) البلاذري ــ انساب ، ج ٥ ، ص ٣٦ .

(٨٨) الشيرازي ــ طبقات الفقهاء ، ص ٨١ ، وانظر : البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٧٥٥ ، ج ٥ ، ص ٣٦ . ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤ ، ص ٥ ، ص ٧ ، ص ٨ ، ص ٦٣ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١٦٣ . السجستاني ــ المصاحف (تحقيق

جابري) ، ص ١٣ — ١٥ . الاصبهاني — حلية ، ج ١١ ، ص ٩٤ . الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٣٤ ، ص ٣٨ — ٩ .

(٨٩) وقد رشحهم ابو موسى لشرف العطاء ، ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٨٩ . واقترح سعد بن ابي وقاص جعلهم في الدين ، البلاذري — فتوح ، ص ٤٥٦ . جاء رسول مصعب بن الزبير الى عمرو بن النعمان بن مقرن (في البصرة) يسأل فقال له : الامير يقرئك السلام ويقول : انا لم ندع بالكوفة قارئا الا وقد غاله معروفنا فاستعن على نفقة شهر رمضان بهذا . فقال : وعلى الامير السلام ، قل له انا والله ما قرانا القرآن لنطلب به الدنيا ، ورده عليه » . البلاذري — انساب ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ .

(٩٠) انظر مثلا : الطبري ، س ١ ، ص ٣٢٧٣ ، ص ٣٢٨٣ ، س ٢ ، ص ١٠٠٦ ، ص ١٠٧٢ ، ص ١٠٧٦ — ٧ . ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤٦ ، ص ١٢٧ ، ص ٢٠٤ ، ص ٢١٦ ، ص ٥٣ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٦٥ . البلاذري — انساب (خط) ، ق ٢ ، ص ٣٠ — ٣١ ، ص ٥٤ . المبرد — الكامل ، ج ٣ ، ص ١١٢٧ ، الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٦٢ — ٦٣ ، ص ٧٩ .

(٩١) الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٩٢ . البلاذري — انساب (خط) ، ق ٢ ، ص ٥٣ . ابن سعد ، ج٧، ق ١ ، ص ١١٤ ، ص ١٤٠ ، ج ٧ ، ق ٢ ، ص ٢١ ، ص ١٧١ . وانظر : الذهبي — القراء الكبار ، ص ٦٨ .

(٩٢) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ . الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٤٤ — ٥ .

(٩٣) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤ ، ص ٧٤ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١١٤ . الاصبهاني — حلية ، ج ٢ ، ص ٩٨ — ٩٩ . الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ص ٦٢ — ٣ ، ص ٧٥ ، ص ٧٩ .

(٩٤) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٥ ، ص ٦٣ . الذهبي — تذكرة الحفاظ (دار المعارف العثمانية ١٣٣٣ — ٣٤) ج ٨ ، ص ١٠٦ . وانظر : الشيرازي — طبقات الفقهاء ، ص ٨٠ ، ص ٨١ ، ص ٨٢ — ٨٣ ، ص ٧٩ . الذهبي — القراء الكبار ، ص ٥٤ .

(٩٥) ابن سعد ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٩٦) انظر : الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ ، ص ٥٦ ، ص ٦٢ — ٦٣ ، ص ٩٣ .

(٩٧) انظر : الطبري ، س ١ ، ص ٢٢١٢ ،

Bravamann - Spiritual Background of Early Islam, pp.169 off, pp. 176off.

(٩٨) ابو زهرة — المذاهب الفقهية ، ص ٢٧ وما بعدها ، ص ٢٩ وما بعدها . وانظر :

Schacht - Origins of Muhammadan Jurisprudence (Oxford 1959), pp. 25 off., pp. 82 off.

(٩٩) Schacht - Introduction to Law, pp. 16 off. P. 233 , P. 237 , P. 247

(١٠٠) أنظر : فؤاد سزكين ــ تاريخ التراث العربي ، ج ١ ، ص ٢٢٦ وما بعدها ، ص ٢٥٤ ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(١٠١) أنظر : ابن حجر ــ تهذيب ، ج ١٢ ، ص ٩٩ ، طلب عمر بن عبد العزيز من ابي بكر بن حزم كتابة « ما كان من حديث رسول الله او سنة ماضية او حديث عمرة » . اليافعي ــ مرآة الجنان ، ج ١ ، ص ٢٦١ . الدوري ــ علم التاريخ عند العرب ، ص ١٠٠ ــ ١٠١ . الرامهرمزي ــ المحدث الفاضل (بعناية محمد عجاج الخطيب) ص ٤٢٣ ، ص ٤٣٠ .

(١٠٢) سزكين ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

(١٠٣) أنظر : ابن سعد ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢٤ . الطبري ــ تفسير ، ج ٧ ، ص ١٢٩ . ابن حجر ــ الاصابة (القاهرة ١٩٣٩) ، ج ٢ ، ص ١٤٠ . الف ابن عباس كتاب لغات القرآن (نشر باعتناء المنجد ، القاهرة ١٩٤٦) .

(١٠٤) أنظر : الجاحظ ــ الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٣ . وعرف مجاهد (ت ٧٢٢/١٠٤) باستعمال الرأي . سزكين ، ج ١ ، ص ١٧٦ وما بعدها . جولد تسيهر ــ المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ، ص ٧٥ وما بعدها ، ص ٦٨ ــ ٨٨ .

(١٠٥) سزكين ، ج ١ ، ص ١٩٧ وما بعدها ، بروكلمان ــ تاريخ الادب العربي ، ج ٤ ، ص ١٧٣ وما بعدها .

(١٠٦) انظر : بلاشير ــ تاريخ الادب العربي . شوقي ضيف ــ التطور والتجديد في الشعر الاموي (ط ٥ ، ١٩٧٣) .

(١٠٧) الجاحظ ــ البيان ، ج ١ ، ص ١٩ . انظر : السيوطي ــ المزهر ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ . الزبيدي ــ طبقات النحويين (باعتناء ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤) ، ص ١٤ . الانساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨١ . ابو الطيب ــ مراتب ، ص ٥ .

(١٠٨) يقول ابو الطيب : « ان اول ما اختل من كلام العرب فاحوج الى التعليم الاعراب ، لان اللحن ظهر في كلام المولدين والمتعربين بعد عهد النبي » . مراتب النحويين (ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٧) ، ص ٥ . وانظر : السيوطي ــ المزهر ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ . والزبيدي ــ طبقات النحويين (باعتناء ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤) ، ص ١٤ .

ويروي السيرافي ان ابا الاسود قال لزياد : « اني رايت العرب قد خالطت الاعاجم وتغيرت السنتهم .. » انظر : اخبار النحويين البصريين (باعتناء كرنكو) ص ١٧ ــ ١٨ . وانظر : البلاذري ــ انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨٩ عن اللحن ايام زياد . ويشير بحشل ، تاريخ واسط ، ص ٤٦ الى الاختلاط في الكوفة والبصرة . ويتحدث المبرد عن عدد من العرب البارزين ممن عرفوا بلكنتهم الاعجمية (مثل عبيد الله بن زياد ، وزياد الاعجم) الكامل ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ ــ ٦ . وانظر : الزبيدي ــ طبقات ، ص ١٤ . وكان زياد يقول : « اذا لم يجد احدكم سعة لتزوج من يرغب فيه لموضعة فليتزوج سبية » . البلاذري ــ انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨١ .

(١٠٩) الطبري ، س ١ ، ص ٢٨٠٣ ــ ٤ .

(١١٠) الزبيدي ــ طبقــات النحويين ، ص ١ ــ ٢ .

(١١١) انظر : فوك ــ العربيــة ، ص ٢٩ ــ ٣٠ .

(١١٢) انظر : عبــد المال سالم مكرم ــ القــرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ، ص ٤٨ ومــا بعدها . ابن النديم ــ الفهرســت ، ص ٥ ،

Haywood - Arab Lexicography, p. 25 off.

الزبيدي ــ طبقــات ، ص ١٣ ــ ١٤ ، السيوطي ــ المزهــر ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ . الداني : نقط المصاحف (دمشق ١٩٦٠) ص ١٣٢ ــ ٣ . وينسب البعض نقط الاعجام الى نصر بن عاصم (٧٠٧/٨٩) ، انظر : المصاحف للسجستاني ، ص ١٦٨ . الذهبي ــ معرفة القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٤٩ ، ص ٥٨ . وجاء في الذهبي « قال خلف بن هشام كنت أحضر بين يدي الكسائي وهو يقرأ على الناس وينقطون مصاحفهم بقراءته عليهــم » . معرفة القراء الكبار ، ج ١ ، ص ١٠١ ، وانظــر ص ١٠٢ . ابــو الطيب ــ مراتب ، ص ٨ .

(١١٣) السيرافي ــ اخبــار ، ص ٢١ وما بعدها ، السيوطي ــ المزهــر ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ . الذهبي ــ القراء الكبــار ، ج ١ ، ص ٧٣ ــ ٥ ، ص ٨٤ ، ص ١٠١ ، ص ١٠٦ . شوقي ضيف ــ المدارس النحويــة ، ص ١٨ .

(١١٤) معرفة القــراء الكبار ، ص ١٠١ . وانظــر : الزبيدي ــ طبقات ، ص ٢ . ابــو الطيب ــ مراتب ، ص ٢٤ ، ص ٢٥ ، ص ٢٦ ، ص ١٢٧ ، ص ١٦٥ . السيوطي ــ المزهــر ، ج٢ ، ص ٣٠٢ .

(١١٥) وهكــذا وقف ابو عمرو بن العــلاء وتلميذه يونس بــن حبيب الى جانب السماع . وانظر : السيرافي ــ اخبــار ، ص ٢٥ ، ص ٣٣ ــ ٤ . شوقي ضيف ــ المدارس النحويــة ، ص ١٩ ــ ٢٠ .

(١١٦) تتمثل نظرة الكوفــة في القول : « كل مــا كان لقبيلة قيس عليه » ، السيوطــي ــ المزهــر ، ج ١ ، ص ٧٥٨ . انظر : احمــد أمين ــ ضحى الاسلام (ط ٧ ، القاهرة ١٩٣٥) ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ وما بعدها . شوقي ضيف ، ص ١٥٧ ــ ١٦١ .

(١١٧) قــال عاصم بن أبي النجود الاســدي (القارىء) : « من لم يحسن مــن العربية الا وجها واحدا لــم يحسن شيئا » . الذهبي ــ معرفة القراء الكبــار ، ص ٧٥ . انظر : شوقي ضيف ــ المدارس النحوية ، ص ١٩ ، ص ١٥٧ ــ ١٥٨ .

(١١٨) انظر البلاذري ــ انساب (خــط) ق ٢ ، ص ٨٣٦ ــ ٣٧ ، عــن المفضل الضبي .

(١١٩) الجاحظ ــ بيــان ، ج ١ ، ص ٢١١ ، والمرزباني ــ مختصر ، ص ٣٦ ــ ٣٧ ، ص ٢٥ . بلاشــير ــ تاريخ الادب العربي ، ج ١ ، ص ١٢٣ ، وانظــر : نهاد الموسى ــ أبــو عبيدة معمر بن المثنى (رسالــة دكتوراة خطية) ، ص ٨٢ ، ومــا بعدهــا .

(١٢٠) أبــو الطيب ــ مراتب ، ص ٣٩ ــ ٤٠ . الذهبي ــ القراء الكبــار ، ج ١ ، ص ٨٣ ومــا بعدها . السيوطي ــ المزهــر ، ج ٢ ، ص ٤٠١ . يقول السيرافي عن يونس بــن حبيب : « وقد سمع من العرب كما سمع من قبلــه ... وكانــت

حلقته بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الادب وفصحاء الاعراب والبادية » . أخبار النحويين البصريين ، ص ٢٣ ــ ٢٤ .

(١٢١) انظر : المخزومي ــ مدرسة الكوفة ، ص ٧٩ وما بعدها . شوقي ضيف المدارس النحوية ، ص ١٥٥ وما بعدها . بروكلمان ــ تاريخ الادب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

(١٢٢) أبو الطيب ــ مراتب ، ص ٣٠ ــ ١ .

Haywood, op. cit. p. 24 off., p. 68 off.

(١٢٣) ذكر المبرد : « قال معاوية يوما : من افصح الناس ؟ فقام رجل فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كشكشة بكر ، ليس فيهم فمفمة قضاعة ولا طمطمانية حمير » ، الكامل ، ج ٢ ، ص ٥٨١ .

(١٢٤) الجاحظ ــ البيان ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ . وانظر : ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(١٢٥) بحشل ــ تاريخ واسط ، ص ٢٦ .

(١٢٦) يقول الجاحظ : « ولم أجد في خطب السلف الطيب والاعراب الافحاح الفاظا مسخوطة ولا معاني مدخولة ولا قولا مستكرها ، واكثر ما تجد ذلك في خطب المولدين وفي خطب البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدبين » . البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٨ ــ ٩ .

(١٢٧) انظر : Fuck - Arabiya (Paris 1955), p. 9 off.

(١٢٨) انظر : الدوري ــ بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب . روز نتال ــ علم التاريخ عند المسلمين . جب ــ دراسات في حضارة الاسلام ، مقال : التاريخ .